للتاريخ

الرافعي

بقلم تلميذه وصديقه

الأستاذ محمد سعيد العريان

« بيان كأنه تنزيل من التنزيل ، أو قبس من نور الذكر الحكيم » سعد زغلول (١)

بيني وبين الأستاذ مصطفى صادق الرافعي عهدٌ وذمّة ، وله عليّ حرمةُ المعلّم والأب والصديق ؛ أفترى كل أولئك يمنحني الحقّ أن أكتب عنه كما عرفتُه ، وأخذتُ عنه ، واستمعتُ إليه ، واستمتعت بفنّه وأدبه ومجلسه ؛ أم تراه سيغضب إذ يراني أتناول حياته وأدبه فأنشر منهما على الناس ، ثم لا أنبئه بما اعتزمتُ إلا حين تنبئه الصحائفُ المنشورة ، على حين أجالسه كل مساء . . . ؟

وإني لحريص على رضاه ، وما أعلم أنه يغضبه أن يحسن رأيي فيه أو يسوء ؛ فإنه ليعلم على أن ذلك حق الأدب ، لا يمنع منه تفاوتُ المنازل أو تداني الرتب ، ولا يؤثر فيه حق المعلم والأب والصديق ، بل لعله إذ يغضب أن يكون غضبه من أنه يؤثر العيش في عزلته التي رضيها لنفسه ، بعيداً من ضوضاء الحياة وصخب الناس ، منعزلاً في (طنطا) الحبيبة إليه ، عن مجالي الأدب ومزدحم المتأدبين في (القاهرة)

على أني إلى ذلك لا أستطيع أن أردّ طلبة للأستاذ الزيات ، وهو قد طلب إليّ أن أكتب هذا الفصل عن الرافعي ، على علم بمنزلته عندي ومنزلتي عنده ؛ أفتشفع لي هذه المذرة عند الأستاذ الرافعي أم سيشفع لي الأستاذ الزيات . . ؟

* * *

تمهيد :

سمعت اسمَ الرافعي لأول مرة مقترناً إلى نشيده الخالد : « اسلمي يا مصر . . . » في حفلٍ حاشد بطنطا ؛ وكان لاسمه يومئذ في أذني رنينٌ عذب ، امتزج بأنغام ذلك النشيد ، وتألف لي منهما لحنٌ عُلويٌّ ساحر ، فيه جمال وعذوبة ، وفيه اعتزام وقوة . على أني لم أكن أعرف يومئذ أهو الرافعي صاحب (الأخبار) (١) ، أم رافعيٌّ آخر ، تجمع بينهما وحدة اللقب وشرعة الوطنية

ومضت سنوات ، وشدوت من العلم ما شدوت ، وإذا صديق يدفع إليّ كتاب « رسائل الأحزان »

كنت يومئذ في بُكْرة الشباب ، في تلك السن التي تدفع الفتى إلى الحياة بعينين منمضتين ، وفكر حالم ، ورأس يزدحم بالأماني ، وقلب مملوء بالثقة ؛ ثم لا يكاد يفتح عينيه على حقائق هذا الوجود ، حتى يعرف أن دنياه من دنيا الناس ، ويحسّ الفرق بين عالم قلبه ، وعالم حسّه ، وتسخر منه الدنيا سخريتها الأليمة ؛ فيلجأ إلى وحدته الصامتة يذرف دمع عينيه ودمع قلبه ، فلا يطرب إلا لأنغام الحزن ، ولا يُسرّني عنه إلا رسائل الأحزان . . . !

واستهواني عنوان الكتاب ، فتناولته أقلّب صفحاته ، لا أكاد أفهم جملة إلى جملة . . حتى انتهيت إلى قصيدته « حيلة مرآتها » فإذا شعرٌ عذب يخالط النفس ، وينفذ في رفق إلى القلب ؛ وإذا أنا أعيدها مرة ومرة ، فلا أدع الكتاب حتى أستظهر القصيدة . وحبّب إليّ هذا الشعر الساحر أن أعود إلى الكتاب فأقرأه في روية ومهل لعلي أن أستدرك ما فاتني من معانيه ؛ وأدّخر لنفسي قوةً من سحر بيانه ، وصدق عواطفه ؛ وعُدت إليه أقرؤه قراءة الشعر ، أفهمه بفكري وشعوري ، وأنظر فيه بعيني وقلبي ؛ فإذا الكتاب يكشف لي عن معناه . .

وأحببتُ الرافعي من يومئذ ، فرُحْتُ أتتبّع آثارَه في الصحف والكتب ، لا يفوتني منها شيء . وأشهد ، لقد كنت أجهد جهداً شديداً في فهم كتابة الرافعي ؛ لأني لم يكن لي عهد بمثلها فيما أقرأ ، وما كنت أقرأ من قبلُ إلا لازجاء الفراغ ، ألتمسه في ذلك النوع الهيّن من أدب القصص والصحف ؛ على أني كنت إلى جانب ذلك أحب الشعر ، أقرؤه فأفهم ما أقرأ ، فكان لي من ذلك ما أعانني على فهم الرافعي ، ثم الإعجاب به من بعد ، ثم ألا يعجبني إلا مثلُ ما يكتب . . .

(١) من كتاب لتقيد العبقري الزعيم سعد زغلول إلى الرافعي ، في تقريظ كتابه « إعجاز القرآن »

(١) هو المرحوم أمين بك الرافعي صاحب جريدة (الأخبار) المصرية ، وابن عم الأستاذ مصطفى . . .

صلتي بالرافعي :

كنت أعرفه وأسمع عنه ، على حين لا يعرفني ولا يسمع بي ، وليس عجيباً ؛ وكنت ألقاه في الطريق منطلقاً إلى غرض ، يهزّ في يمناه العصا ، ويتأبّط بيسراه عديداً من الصحف والمجلات والكتب ، واسعَ الخطو لا يتمهّل ، ماشياً على حيد الطريق لا يميل ، ناظرا إلى الأمام لا يتلفّت إلا حين يهم باجتياز الشارع ؛ فإذا ألقيتَ إليه تحية ، رفع يمناه بالعصا إلى رأسه من غير أن ينظر عنة أو يسرة أو تضيق خُطاه ؛ وكنت أرى ذلك فأحسبه نوعاً من الكبر وأرستقراطية العلماء ، فباعد ذلك بيني وبينه إلى حين . . .

في خريف سنة ١٩٣٢ اجتمع بطنطا طائفة من الشباب على تأليف رابطة أدبية باسم « جماعة الثقافة الاسلامية » ، تقوم أغراضها على العناية بشؤون الأدب والاجتماع ، والعمل على إحياء مجد العرب والاسلام . وتذاكر المجتمعون فيمن يمكن أن ينضم إلى الجماعة من أهل الرأي لتقوى به على تنفيذ أغراضها ، فكان اسم الرافعي أول هذه الأسماء

وذهبتُ إليه عن أمر الجماعة في وفدٍ ثلاثة ، فلقيَنا الرجلُ مرحّباً مبتسما وقادنا إلى (دار كتبه) ، ثم جلس وجلسنا ؛ وفي تلك الغرفة التي تتنزّل فيها عليه الحكمةُ ويُلقى الوحي ، جلسنا إليه ساعة يجاذبنا ونجاذبه الحديث ما نكاد نشعر أن الزمن يمرّ

كان جالساً خلف مكتب تكاد الكتب من فوقه تحجبه عن عيني محدّثه ؛ وعن يمينه وشماله مناضد قد ازدحمت عليها الكتب في غير ترتيب ولا نظام ، تطلّ من بين صفحاتها المطوية قصاصات تنبئك أن قارئها لم يفرغ منها بعد ، أو أن له وقفة عند هذا الموضع من الكتاب سيعود إليها ؛ وعلى حيطان الغرفة أصونةُ الكتب التراصّة ، لا يبدو من خلفها لون الجدار . . .

ومضى يتحدّث إلينا حديث المعلّم ، وحديث الأب ، وحديث الصديق ؛ فما شئتَ من حكمة ، وما أكبرتَ من عطف ، وما استعذبتَ من فكاهة ؛ وللرافعي فكاهة رائقة يخترعها لوقتها لا تملك معها إلا أن تضحك وتدع التوقّر المصنوع ؛ على أن له في فكاهته مذاهبَ عقلية بديعة ، تحسّ فيها روحه الشاعرة ، وفنّه البكر ، وحكمته المتزنة ، وسخريته اللاذعة ؛ ويكاد يكون كثير من مقالات الرافعي برهاناً على ذلك ، فقلما تخلو إحداها من دعابة طريفة أو نكتة مبتكرة

وطال بنا المجلس وخشينا أن نكون قد أثقلنا عليه فهممنا بالانصراف ، وإذا هو يطلب إلينا البقاء ، ويلحّ علينا في تكرار الزيارة ، ويكشف لنا عن سروره بألا نُخيّبَ مجلسه ، وعرفت الرافعي عرفا تاماً من يومئذ فلزمته ، وعرفني هو أيضاً فأسفاني عطفَه ومودّته

اختبار !

وجلست إليه في الزّورة الثانية وبين يديه صحفه وكتبه ، فدفع إليّ صحيفة يومية كان منشوراً فيها يومئذ قصيدة لشاعر كبير ، وطلب إليّ رأيي في القصيدة . لم أتنبه ساعتئذ إلى غرضه ، وحسبتُه يقصد إلى أن يشاركني في لذّة عقلية أحسّها في هذا الشعر ؛ فتناولت الصحيفة وقرأت القصيدة ، ثم دفعتُها إليه وقد أشرت بالقلم إلى عيون أبياتها ورأي فيها ، وتناولها مني ليرى اختياري ، فما عرفتُ إلا وقتئذ أنه كان يختبرني ؛ ولكني — والحمد لله — نجحتُ في الامتحان قدْراً من النجاح . . . !

وتكرّر هذا الاختبارُ مرات وهو لا يحسبني أدرك ما يعني ، على أن إدراكي هذا قد جعلني من بعدُ أكثرَ تدقيقاً في اختيار الحسن مما أقرأ . وأولاني ثقتَه على الأيام ، فكان عليّ من بعدُ أن أقرأ أكثر ما يُهدَى إليه من الكتب ، لأشير له إلى المواضع التي يصح أن يقرأها منها ، وأدع ما لا جدوى عليه من قراءته ضناً بوقته ؛ وكنت أنا أكثر ربحاً بذلك . . .

الشيخ الرافعي . . . .

كثير من الذين يقرأون للرافعي ويعجبون به ، لا يعرفون عنه إلا هذا الأدب الحيّ الذي يقرأون ؛ بل إن أكثر هؤلاء القراء ليتخيلونه شيخاً معتجر العمامة ، مطلق العذبة ، مسترسل اللحية ، مما يقرأون له من بحوث في الدين ، وآراء في التصوّف ، وحرص على تراث السلف ، وفطنة في فهم القرآن ، مما لا يدركه إلا الشيوخ ، بل مما لا يدركه الشيوخ . . . وكثيراً ما تصل اليه الرسائل بعنوان : « صاحب الفضيلة الشيخ مصطفى صادق الرافعي . . . » أو « صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر . . . »

ومن طريف هذا الباب رسالة جاءته من (حلب) منذ قريب ، يبدي كاتبها دهشته أن يرى صورة الرافعي منشورة في

(الرسالة) إلى جانب مقالته فى عدد الهجرة ، مطربشاً ، حليق اللحية ، أنيق الثياب ، على غير ما كان يحسب ؛ ويتساءل كاتب الرسالة : لماذا ياسيدى أمدلتَ ثياباً بثياب ، وهجرتَ العمامة والجبة والقفطان ، إلى الحلّة والطربوش ؟ ألك رأى فى مدنية أوربا وفى المظاهر الأوربية غير الرأى الذى نقرؤه لك . . . ؟ »

وما كان هذا السائل فى حاجة إلى جواب ، لو أنه عرف أن الرافعى لم يلبس العمامة قط ، وهذا لباسه الذى نشأ عليه منذ كان صبياً يدرج فى طربوشه وسراويله القصيرة ، يوم كان تلميذاً يدرس الفرنسية إلى جانب العربية بمدرسة المنصورة . . .

نشأته :

على أن نشأة الرافعى كان لها أثر بالغ فى هذا الاتجاه العقلى الذى برز فيه وتفرّد به ؛ فهو قد نشأ فى بيت له نسب عريق فى الاسلام . وأنت إذا رجعت إلى تاريخ القضاء فى مصر إلى قرن مضى ، رأيت لاسم (الرافعى) تاريخاً فى كل ديوان من دواوين القضاء والافتاء . وقبل نزوح الشيخ محمد الرافعى الكبير من (طرابلس الشام) لم يكن معروفاً لمذهب أبى حنيفة أتباع فى مصر ؛ فهو شيخ الحنفية فى هذه الديار غير منازع ، وقد تخرّج على يديه أكثر علماء الحنفية الذين نشروا المذهب ، ومن تلاميذه المرحوم الشيخ محمد البحراوى الكبير ؛ كما تخرّج على يدى أخيه الشيخ عبد القادر الرافعى كثيرٌ منهم ، ومن تلاميذ أخيه شيخ الشيوخ الآن فضيلة الأستاذ محمد بخيت مفتى الدولة السابق ، مدّ الله فى حياته . وقد مضى زمن كانت فيه وظائف الافتاء كلها محبوسة على (آل الرافعى) ، حتى ذكر اللورد كرومر فى بعض تقاريره : « إن من هذه الأسرة أربعين قاضياً شرعياً » . . وأبو المترجم له (الشيخ عبد الرازق الرافعى) كان رئيساً للمحاكم الشرعية فى كثير من الأقاليم ، وكان رجلا ورعاً له صلابة فى الدين ، وشدة فى الحق ، ما برح يذكرها مع الاعجاب معاصروه من شيوخ طنطا . وبيت الرافعى فى (طرابلس الشام) من البيوت الرقيسة ، وما يزال كعبة يحجّ إليها العلماء . واسم (الرافعى) معروف فى تاريخ الفقه الاسلامى منذ قرون . . .

فالأستاذ مصطفى صادق الرافعى وإن كان قد تربى تربية مدنية كالتى ينشأ عليها أكثر أبناء هذا الجيل لم يزل بعضَ أهله ؛ وقد حمل عن آبائه الراية يقتحم بها فى سبيل الدين ، وينافح الشّرك ، ويدعو إلى الله . وما جهادُه فى ذلك ـ على تسلُّط أسباب الفتنة والزيغ فى هذا الزمان إلا حلقة من سلسلة جهاد طويل ، أفرغها آباؤه حلقةً حلقة منذ انحدر أوّلهم من صلب الفاروق أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . . .

* * *

الرافعى الشاعر

أفرأيت الرافعى وهذا منشؤه ونسبه يقنع بالقدر الضئيل من العلم الذى تلقّاه فى المدرسة ؛ ومن أين للرافعىّ أن يعرف هذه القناعة . . . ؟

فما هو إلا أن ترك المدرسة حتى انكبّ على كتب الدين والعربية يستبطن أسرارها ويبحث عن دقائقها ؛ فحصّل ما حصل من علوم اللغة والدين ، وبلغ ما بلغ من أساليب البلاغة وأسرار العربية . وكان فى نفس الرافعى هوى قديم أن يكون شاعراً . . . فأخذ يقرض الشعر ، وأتمّ طبع الجزء الأول من ديوانه ولما يبلغ الثالثة والعشرين . . . وقدم بين يدى ديوانه مقدمة بليغة ، كانت وحدها البرهان على أن هذا الشاب النحيل الضاوى الجسد يعرف أين موضعه بين أدباء العربية فى غد . . . وما أحاول أن أتكلم عن الرافعى الشاعر الأديب فى ديوانه وعن مقدمة ديوانه بأبلغ مما قال عنه العلامة الشيخ إبراهيم اليازجى ، وهو يومئذ أديب العصر وأبلغ منشىء فى العالم العربى ؛ فقد كتب فى عدد يونيو سنة ١٩٠٣ من مجلة الضياء ، فى تقريظ الجزء الأول من ديوان الرافعى ما يأتى :

« وقد صدّره الناظم بمقدمة طويلة فى تعريف الشعر ، ذهب فيها مذهباً عزيزاً فى البلاغة ، وتبسط ما شاء فى وصف الشعر ، وتقسيمه ، وبيان مزيّته ، فى كلام تضمّن من فنون المجاز ، وضروب الخيال ، ما إذا تدبّرته وجدته هو الشعر بعينه . . .

ثم انتقد الأستاذ اليازجى بعض ألفاظ فى الديوان ، وعقب عليها بقوله :

« . . . على أن هذا لا ينزل من قدر الديوان وإن كان يُستحبّ أن يخلو منه ؛ لأن المرآة النقية لا تستر أدنى غبار ، ومن كملتْ محاسنه ظهر فى جنبها أقلُّ العيوب ؛ وما انتقدنا هذه المواضع إلا ضنّاً بمثل هذا النظم أن تتعلّق به هذه الشوائب ، ورجاءً أن يُتنبّه إلى مثلها فى المنتظَر ، فان الناظم ـ كما بلغنا ـ

لم يتجاوز الثالثة والعشرين من سنيه ؛ ولا ريب أن من أدرك هذه المنزلة في مثل هذه السن ، سيكون من الافراد المجلِّين في هذا العصر ، وممن سيُحلُّون جيد البلاغة بقلائد النظم والنثر . . . »

الرافعي وحافظ

لم يكن الشيخ إبراهيم اليازجي وحده هو الذي تنبأ للرافعي الشاب بالمنزلة الرفيعة التي يتبوؤها اليوم ؛ فقد نال يومئذ أكبر قسط من عناية الأدباء في عصره ؛ وهذه أبيات لشاعر مصر الكبير المرحوم حافظ إبراهيم ، بعث بها إلى الرافعي في سنة ١٩٠٦ تدل بنفسها على مقدار احتفال أدباء العصر بهذا الناشئ الجبار:[1]

أراك وأنت نبتُ اليوم تمشي … بشعرك فوق هام الأوّلينا
وأوتيتَ (النبوّةَ) في المعاني … وما جاوزتَ حدَّ (الأربعينا)
فزن تاج الرياسة بعد (سامي)[2] … كما زانت فرائدُه الجبينا
وهذا الصولجان فكن حريصاً … على مُلْكِ القريض وكن أميناً
وحسبك أن مُطْرِيك (ابن هاني)[3] … وأنك قد غدوت له قرينا

نبوءة

لم يتناول الرافعي في الجزء الأول من ديوانه إلا ما يتناوله الشباب من فنون الشعر ، ولم يكن معروفاً له اتجاه أدبي إلى غير هذا اللون من شعر الشباب ؛ على أن نبوءة من وراء الغيب جاءت على لسان الأستاذ الامام (محمد عبده) ، في كتاب بعث به إلى الرافعي سنة ١٣٢١ هـ (١٩٠٣ م) تدعو إلى العجب والتأمل ؛ إذ ختم كتابه إلى الرافعي بهذه العبارة :

« . . . أسأل الله أن يجعل للحق من لسانك سيفاً يمحق به الباطل ؛ وأن يقيمك في الأواخر مقام حسّان في الأوائل . »

أفكان الشيخ محمد عبده يلقَّى الغيب ، فيعلم من شأن الرافعي في غده مُقَامَه في الدفاع عن الحق والذود عن لغة القرآن ؛ أم استجاب الله دعاءه للرافعي كما استجاب دعاءه لحافظ . . .[1]

وأشبه أن يكون نبوءة أخرى ما كتبه المرحوم الزعيم مصطفى كامل باشا من تقريظه ديوان الرافعي في جريدة اللواء : « وسيأتي يومٌ إذا ذُكر فيه الرافعي قال الناس : هو الحكمة العالية مصوغة في أجمل قالب من البيان . . . »

ولما همّ الكاظمي الشاعر أن يسافر إلى الأندلس في سنة ١٩٠٥ كتب إلى الرافعي : « ثق أني أسافر مطمئناً وأنت بقيتي في مصر . . . »

(للحديث بقية) محمد سعيد العريان

(١) أتاحت لي صحبة الرافعي ثلاث سنين ، أن أقرأ أكثر رسائل الأدباء إليه بخط أصحابها ؛ فكل ما سيأتي ذكره منها في هذا المقال أثبته عن بينة

(٢) محمود سامي البارودي باشا ، المتوفى سنة ١٩٠٤

(٣) ابن هانئ : أبو نواس الشاعر العباسي المشهور ؛ ويعني به حافظ نفسه

(١) لما عرب حافظ كتاب (البؤساء) من الفرنسية ، أهداه إلى الأستاذ الامام مع كلمة جاء فيها : « وقد عنيت بتعريبه لما بيني وبين أولئك البؤساء من صلة النسب . . . » فيقال إن الأستاذ الامام كتب إليه يمازحه : « لو كان البؤس هو الذي أعانك على تعريب هذا الكتاب ، فاني أدعو الله أن يزيدك بؤساً . . . ! » فكان حافظ — رحمه الله — يقول : « استجاب الله دعاء الامام ! » وقد عاش حافظ مدة حياته بائساً ومات بائساً

وزارة المعارف العمومية

اعلان

بمناسبة ضم مدارس مصلحة الحدود لوزارة المعارف العمومية ابتداء من السنة المكتبية المقبلة ٣٥ — ١٩٣٦ تعلن الوزارة عن خلو الوظائف الآتية :

عدد	
١	— مدرس أدبي لمدرسة العريش
١	— « علمي لمدرسة مرسى مطروح
١	— « لغة عربية لمدرسة الخارجة
٢	— « أدبي لمدرسة الخارجة
٢	— « علمي لمدرسة الخارجة

وسيكون تعيين هؤلاء الموظفين في الدرجة السابعة بالمرتب الذي يتناسب مع مؤهلاتهم الفنية ، ويصرف لهم علاوة على المرتب بدل إقامة بواقع ٢٠ ٪ من المرتب ، بشرط ألا يزيد على خمسة جنيهات ، ولا يقل عن جنيهين ، فعلى الراغبين أن يتقدموا بطلباتهم الى مراقبة التعليم الابتدائي رأساً في ميعاد لا يتجاوز ٣١ يوليو الجاري مع ملاحظة أن الطلبات السابقة لا يلتفت اليها